تولد الضباب في اناء فيهِ هواء عاديّ ثمّ أُمهِل حتّى رسب كل ماء الضباب وأُدخل بخار آخر في الاناء تكوّن فيهِ الضباب مرّة أُخرى دلالةً على ان البخار الاول لم يبقِ الهواء من كل ما فيهِ من الغبار . واما اذا كُرِّر ذلك مرارًا عديدة تنقّى الهواء من الغبار ولم يعد البخار يصير ضبابًا بل يتكاثف نقطًا كبيرة ويقع كالمطر

تأخُّرنا العلمي واسبابهُ

لجناب رفعتلو اسعد افندي داغر

ابتُ ما بيَ تخنيثًا لما وَجَدَتْ نفسي بكمانو ثقلاً على ثقلِ
أقمتُ حينًا عليهِ صابرًا وانا أُعلِّلُ النفسَ أن لابدَّ من نقلِ
حتّى تبيّن لي أن ما كنتُ غدا ملَّ المسامع والافواه والمقلِ
هذا بالقاء دلوي في الدلاء قضى كذاك ذكري لهذا البيت وفق لي
"وقد رأيت مجال القول ذا سعةٍ فان وجدت لسانًا قائلاً فقُلِ"

للكلام وجهان في كل موضوع يبنى عليهِ . او بحثٍ يساق اليهِ . فهذا يمدح الكرم ويطنب بمآثر الكرماء . وذاك يذم البخل ويندد بمعايب البخلاء . وغاية الاثنين واحدة — الحض على الكرم لانهُ نعم الفضيلة والتحذير من البخل فانهُ بئس الرذيلة . وزيد بفيض الكلام في مدح الامانة ويسرف في اعلاء شان الامناء . بينما عمرو يسهب القول في ذم الخيانة وتنقيص الخائنة الادنياء . وغرضهما واحد الحض على اتباع الاولى عنوان النشهامة والكرامة . والحث على تجنب الثانية دليل الخسة واللئامة . وهذا الطبيب يشير الى الوسائط الصحيّة ويأمر بأخذها . وذاك يدل على اسباب المرض ويجزم بوجوب نبذها . والقصد واحد من وراء وجهي هذا الكلام — حفظ الصحة وانقاء الاسقام

وليس هذا الحكم بمحصور في ما تقدم معنا التمثيل عليهِ بل هو شائع في الجميع . مطرد في سائر الابحاث والمواضيع . وما جاء منهُ على الاسلوب الاول أُطلق عليهِ الوجه الايجابي وما ورد على النحو الثاني الوجه السلبي . وكثيرون من الكتبة النحارير يتخيرون الاول ويوثرونهُ على الثاني ولا سيما في مخاطبة خالي الذهن مما يراد بسطهُ وينصد نقريرهُ كالاحداث الذين يعنى بتمرينهم في معرفة مبادئ الحقائق الدينيّة والادبيّة والعلميّة فعند هولاء الكتبة

أنّ تعريفك للولد بوجودهِ تعالى وحضك اياه على اتقائهِ وحفظ وصاياه، اسلم عاقبة من تعليمهِ بوجود شيطان ونهيهِ عن الانقياد الى وساوسهِ وتجاربهِ . وامرك لهُ بالتزام جادة الصدق في سائر اقوالهِ خير من تذكيرهِ بالكذب وردعهِ عن ارتكابهِ . واقتصارك على تعريفهِ الحباحب عند ما يرى شعاعهُ ليلاً افضل من تفنيد ما يذهب اليهِ بعض العامة من انهُ عين العفاريت والجان او نور بعض الاخيلة والغيلان

والخلاصة ان الاقتصار عندهم على اظهار الفضائل وايجاب اتباعها وتقرير الحقائق والحض على التمسك بها اسلم مغبة من تنبيه الافكار على الرذائل واستمالتها الى الخرافات والاوهام ويقولون انهُ من لا يعمل بموجب امرك لهُ على طريق المواعدة والمناصحة لا يردعهُ عن غيهِ نهيك اياه بلسان التقريع والتوبيخ ومن لا يعرف الحق حقًّا لا يدرك البطل بطلاً

ولعل الاقرب الى الصواب في استعمال هذين الوجهين ما جاء في كتب النحو عن استعمال الضميرين المتصل والمنفصل اي لا يجوز استعمال الثاني الاّ حيث يتعذر استعمال الاول وهكذا يقال في استعمال هذين الوجهين الايجابي والسلبي فلا يليق بنا عند اغراء رجل على الكرم ان نذم البخل والبخلاء لديهِ . ونطبّق ذلك من باب الكناية عليهِ . بل يجب ان نبالغ امامهُ في مدح السخاء ونشوقهُ الى الانخراط في سلك الكرماء حتّى اذا انتهت الكناية الى الادنى . ولم يبقَ في قوس هذا الوجه منزع . نزعنا الى الوجه الثاني . واسمعناهُ نفثات الذم والتجاء على الآت مختلفة بين المثالث والمثاني . وان ذهبت هذه ايضًا ادراج الرياح . ولم تفد فيهِ شيئًا من الاصلاح . افادت الآخرين المطلعين على قبيح خصالهِ . وحذرتهم من اتباع مثالهِ

ولقد طالعت ما اتصلت اليهِ يدي مما كتبهُ في حالتنا العلميّة اسيادي العلماء والمشاهير . والكتبة النحارير فاذا الكلام في جميع تلك المقالات منسوق على الوجه الاول (الايجابي) الاّ ما هو دون الطفيف والنزر اليسير . اذ انهم مدحوا العلم واستلفتوا الانظار اليهِ . وايقظوا الافكار الى وجوب الاقبال عليهِ . واشاروا الى ذرائع تحصيلهِ . وحرضوا على الجد والامانة جميع المجاهدين في سبيلهِ . حتّى نامت بحمل ما كتبوهُ اعمدة الصحف والمجلات . وضاقت عن وسعهِ صدور المجلدات . ولما وجدت بحكم المقابلة ان اكثر ما كتبوهُ في هذا الموضوع ذهب سدى . ولم يرجع لاصوانهم من عند السامعين اقل صدى . رايت ان اسوق الكلام على وجههِ السلبي . واجاهر على رؤوس الاشهاد باسباب تاخرنا العلمي التي اسرّتها من قديم نفسي ولم ابح بسرها الى غير قلبي . وهي خواطر ارفعها الى نظر

جهابذة النقد . راجيًا تمحيصها وابداء ما عندهم عليها ولهم الشكر سلفًا والفضل من قبل ومن بعد

ما لا يختلف فيهِ اثنان ان العلم — على حقيقتهِ — باقٍ بيننا الى الآن متصورًا على افرادٍ اضمرتهم البلاد . ومحصورًا في صدور من لا يتجاوزون في العد مرتبة الآحاد . وفي هذا من بواعث العجب والاندهاش ما فيهِ . ولا سيما عند من يطلع على ما في مدن سوريا ومصر وسائر البلدان العربيَّة من المدارس التي تُعَدّ بالمئات والاساتذة الذين يُعدّلون بالالوف والتلامذة الذين يحصون بعشرات الالوف ويتلو ما تضيق بهِ كل سنة اعمدة صحفنا الاخباريَّة من الاطناب في مدح تلك المدارس وتقريظ احتفالاتها والافاضة في وصف مهارة الاساتذة وبراعة التلامذة وغير ذلك من أنباء التقدم والنجاح التي تزدحم جرائدنا كل عام الى نشرها مهشة مبشرة . وتستبق اجياد الآذان للتطوّق بها على جياد الأقدام مُحضرة . فتنشرح الصدور بنشر تلك التهاني . وتلج القلوب بذكر نيل الاماني . على انهُ لا يستشب الخُبر فيما بعد ذلك ان يكذب الخَبَر . وتنظر عين البحث فلا تقف لتلك الحقيقة على أثر . بل تبصر اكثر شبابنا خارجين من المدارس "افلت من جرادة العيّار" وهم في جهلهم حتّى لقواعد اللغة أسواء . لا تدري ايهم اكثر خطأً في الكلام واوفر لحنًا . وفي الادعاء بالعلم اكفاء اذ تسمع لكلٍّ جعجعة ولا ترى طحنًا . واذا استنصيت امالهم نحو العلم وجدتهم فريقين الواحد يميل اليهِ اشد الميل ويغار عليهِ غيرة الضرائر . والثاني يبغضهُ بغضًا لا يعرف لهُ اول ولا يدرك لهُ آخر . فبارح ذاك مجانبهُ التي تعذّر عليهِ اقتطافها وفي النفس منهُ اشياء . وغادر الثاني مغانيهُ وهو يقول من شدة كراهتهِ لها فراق لا يعقبهُ لقاء

ومن يأتي على مهما بلادنا الشرقيَّة نظرًا علميًّا عامًّا يرى فيهِ اثرًا من تخديش يد الجهل ناصع البيان . ولطخًا من سواد التأخر ظاهرًا للعيان . على رغم طنطنة الجرائد بكثرة العلماء . وازدياد عدد الخطباء والشعراء والكتبة الادباء الالباء . وقصر حاجتنا على رجال صناعة وشبان عارفين باحوال التجارة وفنون الزراعة . الاّ اذا اريد بالعلماء والادباء والشعراء المدعين بهذه الاشياء . والمدعوين باسمائها من الاصدقاء والاقرباء . لان نفس التسليم بشدة افتقارنا الى رجال صناعة وزراعة . اعظم مكذب لما أُشيع بيننا من أنباء كثرة العلماء وأكبر مجاهرٍ بعدم صحة تلك الاشاعة . ولم يكن هذا مخافًا على اهل الحصافة والنبل . الذين تفضلوا بملاحظتهِ من قبل وسبقوا الى التنبيه عليهِ فكان لهم ذلك فضلاً على فضل . على أنّ الأخذ باسباب الاصلاح لا يتمّ الاّ بعد الوقوف على سائر وجوه الخلل . وهيهات ان

تداوى الادواء قبل تمثيل الاعراض وتشخيص سير العلل . فشعورنا بتأخرنا العلمي يُعدُّ لنا نهضةً لتوفي سهام خمولٍ شوت وأحمت وخطوةً مهمةً في سبيل التقدُّم حيثما هي ونعمت ، اذ يسهل بعدُ اقناع الافكار بوجوب المبادرة التي تطلُب وجه السداد . والاسراع في سلوك طرق الاصلاح وفق المراد . وهكذا كان حتَّى رأينا الذين أُشربت قلوبهم محبة الوطن . وأُوتوا عنولاً ثاقبة تتقد بشعلة الذكاء والزكن . والسنةً ذربةً تحذتها البلاغة وحددها اللسن تجردوا للصدع بهذا الامر الخطير ، واشاروا الى كثير من وسائل ملافاة الخلل ومداواة علل التقصير . وورقوا في هذا الموضوع كلماتٍ خالداتٍ تنشر بنود فضلهم في البلاد . وتستنطق بذكرهم السنة الجماد او تكاد . واقنعوا كثيرين من ابناء الشرق بوجوب احراز المعارف والآداب . فقامت معاهدها تعمر بالمريدين وأنشأت حدائقها تزهر بالطلاب . حتَّى آنس العلم من خواطرنا ارتياحًا بعد الانكماش والانقباض . واصاب في وجوهنا هشاشةً لم تبقِ على سحب الانزواء والإعراض

اما نحن فحدانا الله على تحرُّك ربحٍ بعد الركود . وتوقُّد مصابيح غب الخمود . وجلسنا ننظر عامًا بعد عام الى ديارهِ الفاصَّة بجماهير التلاميذ . ونتوقع بفروغ صبر خروجهم منها نخبة علماء هذا كاتب بليغ وذاك خطيب مصقع وذلك شاعرٍ مجيد . حتَّى جاء الاجل المسمَّى . فسمعنا وشاهدنا ما ودَّت عندهُ الاذن ان تكون صمَّاء والطرف اعمى . ولست بآتٍ على ما حصَّلهُ بعض شبابنا في هذه المدارس باكثر من هذا الاجمال الَّا اذا أُنكرت عليَّ صحة ما المعتُ اليهِ واقتضت ضرورة الحال . فاشذَّ عن الكلام اطواق التلميح . واشبعهُ تصريحًا على تصريح حتَّى يبرح الخفاء لدى كل ذي عينين وتبدي الرغوة عن الصريح . وهنا يسأل قوم ماذا عسى ان يكون الباعث على التواء القصد واستحالة الحال . وما الداعي الى اخفاق المساعي وعدم تحقُّق الآمال ولقد سبقني الى الجواب عليهِ كثيرون من الكتبة الغاربر والعلماء الالباء . واتفقوا على رؤية ظواهر الاعتلال لكنهم اختلفوا في صفة العلاج لاختلافهم في تشخيص الداء فمنهم من ذهب الى ان علة قصورنا العلمي صعوبة لغتنا العربيَّة وعدم صلاحيتها لمجاراة اللغات الاوربية اذ ليس فيها ما يخرجها عن وضعها الاصلي (لغة شعر وخطابة) ويؤهلها لان تكون لغة علوم وفنون ولسان اختراعات واكتشافات وهذا غاية ما اتفق عليهِ الذاهبون هذا المذهب لانهم اختلفوا فيما وراءهُ فنادى بعضهم بوجوب نبذ العربية الفصيحة واستبدالها بالعامية وجاهر الباقون منهم بطرحها كليهما والاستعاضة عنها بلغةٍ اجنبيَّة ومنهم من حصر آفة التقدم في نفس ابناء

البلاد الذين عوضًا عن ابداء ارتياحهم الى العلم وإذخاره . وبذل النفيس في سبيل توسيع نطاقه ورفع منارهِ . وضعوا حجر عثرة في طريق اكتسابهِ ومنعوا بنيهم ان يكونوا في مقدمة طلابهِ . وضنّوا بدريهاتٍ صانوها عن البذل في سبيل وسائط تعميمهِ وانتشارهِ بين ظهراني القوم كالمدارس والمطابع والكتب والصحف والجمعيّات وغير ذلك . وجادوا بالدنانير الصفر الرنّانة فالقوها بين ايدي شبانهم ذرائع للتطوح في المهالك . ووسائل للتوغل في مفسدات الآداب والانبعاث في اقبح المسالك . على ان من يتدبّر هذا المذهب يعين الانتقاد . يجد فيهِ بعد امعان النظر شيئًا من السداد . لكنهُ لم يجئ من حيث اصابة العلة الحقيقية وافيًا بالمراد . الاّ اذا قُصِر نظرهم على اغنياء البلاد . اذ عليهم شيء من تبعة تقصيرنا العلميّ وهم ببعض مسببات تأخرنا الادبي مؤاخذون . ولذا يستحقون ما كتبهُ فيهم اهل الاصلاح وسوف يكتبون ولكن ليس هذا منشأ الالتواء ومبعث الخلل . بل غاية ما يقال فيهِ انهُ سبب من اسباب كثيرة وعلة من علل . والاّ لزمنا التقصير في البحث والنقص في الاستقراء . وتعذّر البلوغ الى المطلوب في تقصّي اسباب الداء . فضلاً عما وراءهُ من غمط الفضل وانكار الهمة والغيرة لكثيرين من ابناء البلاد الذين مع توسطهم بل انحطاطهم في درجة الغنى رأيناهم ونراهم مقبلين على العلم اتمّ اقبال . ومتجشمين على تعليم اولادهم نفقات باهظة على رغم خلوّ اليد وضيق الحال . بل وجدنا بعضهم يستدينون وبعضهم يسترهنون وآخرين منهم يبيعون ما لديهم من المقتنيات . تسهيلاً لسبيل تعليم اولادهم بعض العلوم واللغات . فانت ترى ان اسناد آفة النجاح العلمي الى اهل البلاد . يدخل امثال هؤلاء تحت هذا الاسناد . حالة كونهم برآء من هذا ومنزهين عنهُ كل التنزيه . وفضلهم في تنشيط العلم واهله منقطع الشبيه . غير محتاج الى تنويه او تنبيه

فليست يوتنا اذًا منشأ هذا الداء . وما الوالدون علة تفشّي هذا الوباء ومن يراقب طلبة العلم وهم خارجون من منازلهم يودعون الاهل والاقرباء متأهبين للسفر الى ديار العلم براهم على رغم تعادي المسالك وتراامي المسافات وتحمل مشاق السفر واعباء الفراق تشاوى من راح الصحة والنشاط والانشراح . وملاء من ارواح الشيبة والميل والارتياح . ولا يسعهُ الاّ ان يقدّر لهم كل تقدّم وفوز وفلاح . ولكن لا ينقضي الاجل المضروب لتغربهم حتّى نشاهدهم راجعين يتعثرون باذيال السآمة والملل . ويتسكّعون باقدام التنوط وخيبة الامل . وفي قلوبهم من حب الكسل والبطالة . وادواء الجهل العضالة ما لا يرجى عندهُ صحو ولا ارعواء . ولا يجمع فيهِ علاج ولا دواء . فعلى الناقد البصير مرافقتهم الى بيوت العلم وتفحص

احوالهم فيها بعين الحذق والدراية وهناك يرى الضالّ المنشود. ويقع على الضائع المفقود. ويتضح الصبح لذي عينين وضوحًا لا يحتاج معهُ الى شهود

وقبل الدخول في تعهد تلك المعاهد. وتفقد ما فيها من المشاهد. نقف عند ابوابها وقفة فائت. ونسأل سؤالاً ان سكتت عن جوابهِ الالسنة الناطقة تنطق بهِ الصوامت. وهو: أليس بنو الشرق اهل فطنة وذكاء. وألي اذهان اذكى من النار وامضى من السيف وارق من النسيم واصفى من الماء. اليسوا ذوي خواطر اجرى من البرق. وقرائح اسيل من الودق. وعزائم لا تدرك بينها وبين الجبال ادنى فرق. اليسوا هم الّذين اذا تفرّست في وجوههم لاحت لعينيك اسرار الحكمة من اساريرِ الجباه. وباحت لك بمكنونات النباهة حدّة النظر ورشاقة العيون. ورأيت مهبط الفصاحة والبلاغة بين الالسنة والشفاه. ومجلى عرائس البيان والبديع تحت اطباق الجفون

ذلك امر لا ريب فيهِ وجميعنا مسلمون بهِ ومجمعون عليهِ. ولقد طالما نوّه بهِ من اهل الغرب كتبة بلغاء واشاروا بالرغم عنهم اليهِ. وما ذاك الاّ لانهم شاهدوا عيانًا براعة شبابنا في مدارسهم الجامعة والكليّة. ونبلهم في الامتياز على شبان الغرب كثيرًا من الشهادات الطبيّة والعلميّة. اذًا ما الباعث والحالة هذه على تقصير اولادنا في مدارسنا عامًا بعد عام وهنا محل اشباع الكلام بقدر ما يسمح الوقت ويفسح المقام

نتقدّم معنا ان لهذا التقصير اسبابًا نتج عنها ولم يخيّم ظل الصدفة بهِ علينا. ولا ساقتهُ يد الاتفاق الينا. وفي ما سبق من الكلام وجدنا انهُ لم يكن ناتجًا عن اللغة ولا عن ابناء البلاد ولا عن قصور طبيعي في الاولاد. لان الاستقراء نقض لنا دعائم هذا الاحتجاج. وقضى بفساد الاستنتاج وادت بنا خاتمتهُ الى المدارس الّتي حدتنا الضرورة ودعانا الاضطرار. ان ندخلها مستأذنين من الروّساء والنظار. ونتفقد احوالها بعين الناقد البصير ونقلب فيها نظار التنقيب والتنقير. لعلنا نجد الخلل ومنشأ التقصير

كل من ينظر الى مدارسنا بعين سليمة من غشاوة التعصب منزهة عن شوائب الاغراض. ويرمقها بطرف اكحل بجوهر النقد الصحيح فلم يبقَ فيهِ لريب المحاباة من اعراض. لا يسعهُ الاّ الحكم بانها ان لم تكن هي وحدها علة الخلل ومبعث التقصير. ففيها منها جزء عظيم وقسم كبير. وما مثلنا في هذا المقام الاّ مثل طبيب حاذق رأى في مريضهِ اعراض الداء. وانكبّ ينقب عن الاسباب متقصيًا البحث والاستقراء. حتّى اذا ظفر بها جمع شتاتها وطبّق عليها ما توصل اليهِ بالتشخيص والتمثيل. وتمكن عند ذلك من

شفاء العلة وابراء العليل . وهكذا نحن الآن في وقوفنا امام المدارس موقف الناقد الملاحظ يترتب علينا فوق الضبط والتدقيق الأخذ بكل مايحوم عليهِ طائر الفحص من الاسباب التي تنطبق عليها اعراض تأخر اولادنا مهما تناهت في الصغر . والتعلق بجميع ما يتصل اليهِ رائد الامتحان من العلل التي مثلنا لنا يد الاختبار بعد شدة التأمل وطول امعان النظر . حتى اذا احطنا علمًا بجميع مافي مدارسنا من اسباب التقصير وجمعنا اليها مانشاهدهُ في سباتنا بعد خروجهم من المدارس جلسنا نتجاذب البحث في قطع دابرها . ونقلب الفكر في استنباط الوسائط للاستغناء عن آخرها . ولانعوز المريد قوة النظر في ما هو حري بالاستبصار جدير بالتدبير بعد الاتكال عليهِ تعالى انهُ على كل شيء قدير

وسأجعل الكلام شاملاً جميع مدارسنا التي تُعلَّم فيها العلوم باللغة العربيَّة من " بسيطة " " وعالية " خارجيَّة وداخليَّة وطنيَّة واجنبيَّة وما يجيء في اثنائهِ مخصوصًا بقسم منها فذلك لا يعدم من جانبهِ قرينة تدل عليهِ . ولمحة تشير اليهِ . واما المدارس التي لا تعلم اللغة العربيَّة او تعلمها بالاسم فقط فهي وان كانت من اهميَّة البحث بمكان . ليست في شيء من موضوعنا الآن . وفي كلامنا عن مدارسنا — موضوع هذا البحث — نقصر النظر على ثلاثة اشياء وهي كتب التعليم والمعلمون ورؤساء المدارس ستأتي البقيَّة

نبذة من تاريخ المعارف في الصين

بقلم جناب قسطنطين افندي نوفل

مذ حسر القناع عن محيَّا التواريخ الصينيَّة علم ان للصين الفضل الاول في اكتشاف بعض الحقائق والاسرار الطبيعية فقد روى المؤرخون الصينيون ان احد ملوكهم الذي نشأ في سنة ٢٦٩٨ ق . م . كان عندهُ مركبة بديعة الشكل تشير الى جهات الارض الاربع بكل دقة فيعلم الملك حين يركبها الجهة التي يقصدها . وذلك يدل على ان الصين قد سبقت اوربا بزمن مديد الى اختراع الابرة المغنطيسيَّة وما يؤيد ذلك انهُ عند دخول البرتغاليين بلاد الصين وجدوا عددًا عظيمًا من المراكب التجاريَّة وراوا ربانًا مستخدم بوصلة ذات ربع دائرة وخارتات جغرافيَّة